

أرض الشهداء

أسود الجبل

د/محمد عبد الحكيم سليم

دار البشير
للثقافة والعلوم

أرض الشهداء

سلسلة روايات إسلامية للشباب والكبار

بطولات من كل العصور والبلدان



العدد الأول

أســـود الجبــل

1421 هـ ـ 2001 م

* الكتـــــاب : أسود الجبل

* الكـــاتـب : د. محمد عبدالحكيم سليم

* الطبـــعـــة : الأولى 2001.

* الناشروالتوزيع : دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .

تليفاكس : 3305538 ـ 3321744 / 040

☎ : 2120277 ـ 2120907 / 040

أصالة للتجارة والتسويق ـ الزقازيق

تليفاكس : 353988 / 055

* التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية ـ المحلة الكبرى

تليفاكس : 2120277 / 040

* الإيداع القانونى : 1761 / 2001

* الترقيم الدولى : I.S.B.N.977 - 278 - 185 - 9

Web Site :www. albashir.com.eg

E-mail:albashira@compu-castle.com.eg

1 ـ ذكرى . . . . :

كان نهر الكوثر يجرى بمائه الأبيض الرقراق ، باعثاً خريره الهامس إلى الآذان ، وعلى مقربة من قباب اللؤلؤ المصفوفة على ضفته ، جلس أحمد الوردانى على أريكته المكسوة بالسندس الأخضر ، يداعب النسيم خصلة من شعره الفاحم ، وترنو عيناه العسليتان إلى الكوثر الجارى أمامه [1] ـ من خلفه وقف تابعه الخاص (حسان) ، صامتاً ساكناً كى لا يقطع على سيده خلوته .

هذا السكون لم يدم طويلاً ، إذ ما لبث أحمد أن شعر بقبضة من المسك تصطدم بظهره ، لتتحول من فورها إلى عبير يملأ الفضاء ، وسمع صوت ضحكة يعرفها . .

كان هذا هو عمر الأزرق ، صديق أحمد المقرب ، ورفيق جهاده فى الدنيا وقد اقترب من المكان دون أن يشعر به أحمد المستغرق فى تأمله . .

ابتسم أحمد قائلاً : « لا زلت مشاغباً كالعهد بك يا عمر .

وراح عمر يضحك ملء فيه ، فتهتز عباءته الحريرية حول جسده : « وأنت أيضاً لا زلت كالعهد بك ، هائماً فى ملكوت الله » وقدم إليه كأساً مملوء بماء الكوثر وأردف : « بدلاً من

جلوسك هكذا لتحملق فى الكوثر الرقراق ، قم واملأ جوفك من مائه الأحلى من العسل ، إن شربة واحدة منه تُنسى من شربها عطش السنين .

ورفع الكأس إلى شفتى أحمد فشرب الأخير من يد أخيه حتى ارتوى . . وراح عمر يعب من الكأس عباً ، وبقى الكأس فى يده دهاقاً لا تنفد . . .

وتعلقت عينا أحمد بالكأس وهو يقول : « لكم عطشنا يا عمر فى الدنيا ، لقد صار هذا كله ذكرى . . وأسدل عليه الستار »

ـ « وما لنا يا أخى وللدنيا ؟؟ لقد ذهبت بعطشها ونصبها . . ومنّ الله علينا بالنعيم المقيم » .

ـ « لا أقدر على النسيان يا أخى ، أتذكر يوم الملحمة [2] ؟؟ أتذكر يوم حصرنا الأعور الدجال فى فلسطين [3] ، وقطع عنا الماء والزاد ؟؟

ـ « لقد كنت تبدو يومها كالموتى . . وما عليك سوى خرقة مرقعة لا تحميك من برد الشام ، وخرجت أنا ويوسف أرسان نفتش فى الظلام عن نبته نأكلها ، أو كف من ماء حفظته القيعان ولولا حفظنا الله ببركة التسبيح لمزق أجوافنا الجوع والعطش . .

ـ « لولا العطش هناك يا عمر ما ارتوينا ها هنا » . .

ـ « بل هى رحمة الله يا أخى . . وما كان العمل والنصب منا سوى تعرض لرحمته » [4] . .

« نعم . . . هى رحمة الله التى وسعت كل شىء » .

والتفت أحمد إلى تابعه يسأله :

« أتدرى أين هم الآن يا حسان ؟ » .

ورد حسان بابتسامته المعهودة : « سيدى يوسف فى زيارة لروح الله عيسى ـ عليه السلام ـ ، وسيدى حذيفة يتنزه فى ملكه العريض ، وقد عاد سيدى راشد لتوه من جولة رأى فيها أعداءه القدامى وهم يعذبون فى جهنم [5] ، وسيدى سالم فى قصره »

ـ « هلا أرسلت إليهم ، لقد اقترب موعد لقائنا عند الشجرة »

وبعد لحظات ، كان كل من الأخوين الحبيبين قد استوى على فرسه المجنحة [6] بلونها الأحمر الصافى ، لون الياقوت الذى خلقت منه ، يتبعهما حسان وباقى الملائكة المسخرين لخدمتهما وراح الفارسان يسيران تارة ، ويطيران أخرى ، ويطويان السهول والمروج . . كان ذلك فى جنات عدن ، فى إحدى الدرجات المائة التى أعدها الله لعباده المجاهدين [7] هى أرض الشهداء والمجاهدين أورثهم الله إياها بما كانوا يفدون دينه بأرواحهم ، ويعلون كلمته ببذل دمائهم ، لقد انتهى الآن كدهم

ونصبهم ذبح الموت [8] وأسدلت أستار الخلود ، وانقضت أيام الدنيا فلم يبق منها سوى ذكرى باهتة ، تلك التى تداعب خيال أحمد الوردانى وهو متوجه نحو شجرة طوبى [9] ليلقى إخوانه من مجاهدى الزمان الأخير ، أولئك الذين ذاقوا الأهوال فى الملحمة الكبرى وثبتوا أمام الأعور الدجال ، هاهم يتنادون من أنحاء جنة عدن ليجتمع شملهم ، ويجالسون إخوانهم من أول الزمان وأوسطه ، هاهو يوسف أرسان ، وها هو حذيفة القناص قادم يحمل طيراً مشوياً هدية لإخوانه ، وهذا راشد وذاك سالم ، كلهم يتجمعون قاصدين الشجرة ، ليجدوا الأرائك والسرر قد صفت فى ظلها الممدود ، وعليها الأحباب يتكئون ، يتهامسون ويتعارفون ، ويتبادلون الهدايا من تحف الجنة ونفائسها الفريدة ، وقد تدلت الأغصان بثمارها الغضة لتدنو من أياديهم ، فالجنة « قطوفها دانية » .

نزل الجميع من على الركائب ، حيوا الجمع بتحية السلام . . واتخذوا مواضعهم من المجلس . . تصدره أحمد الوردانى صامتاً يتأمل الوجوه الناضرة ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه المختار . . فالتفتت إليه العيون وتعلقت بوجهه الوضاء وهو يقول : ـ « هلا تعارفنا ؟ » .

وتوالت الأسماء والعصور ، هذا (سورا) . . مؤمن من آل فرعون ، وهذا (أبو العباس) . . فارس من زمان الأندلس ،

وذاك شهيد قضى نحبه على أبواب القسطنطينية . . أما الثلاثة المتقابلون فى آخر الصف فهم من النصارى الموحدين . . من القرن الثانى لميلاد المسيح . .

وقضى التعارف . . وساد الصمت لحظات أخرى ، ثم رفع أحمد رأسه قائلاً :

وهل تطفىء هذه الأسماء والبلدان شوقى إلى المعرفة ؟!

وتطلعت إليه العيون فى دهشة ولم يفهم سوى عمر ، فابتسم له هامساً :

« ألا زلت مصراً على فكرتك يا أحمد ؟! »

وكان (أبو العباس) قريباً يسمع همسة عمر فسأل : ـ
« وما هى تلك الفكرة ؟! »

وانتظر أحمد حتى هدأت الهمهمة والتساؤلات ، فرفع رأسه قائلاً : ـ

هى أمنية تمنيتها ذات ليلة من ليالى الشتاء ، كانت ليلة مطيرة باردة ، بتناها أنا وعمر فى خندق تحت الأرض فى غزة ، نرقب على الشاشات حركة أسطول الأعداء فى البحر ، وجيوشه الزاحفة من الشمال ، قبل أن نتقدم لملاقاته يوم الأعماق [10] كان الصمت ثقيلاً ، والموت يطبق علينا من كل ناحية ، رحنا

نتحدث عن الجنة ، إذا أكرمنا الله بدخولها فماذا نتمنى ؟ رحنا نعدد الأمنيات . . يومها تمنيت أن ألقى إخوانى المجاهدين من كل العصور . . فأسمع منهم ، وأعيش مع كل منهم حياته وجهاده وأرى كم عانى وكم خاض من أهوال . . حتى شمله الله برحمته وتقبله فى العباد الصالحين !!

وسكت أحمد هنيهة ثم أردف . . « لقد آن الأوان أخيراً لتتحقق الأمنية ، لقد آن الأوان لنجلس هاهنا . . فى ظل ممدود . . ليحكى كل مناحكايته ، ويبسط حياته وجهاده أمام إخوانه (11) ، ليروا بعينه زمناً لم يعيشوه ، وملحمة من ملاحم الحق لم يشهدوها . !. فهل أنتم معى ؟؟

التقط (يوحنا) ثمرة تشبه التفاح قائلاً : ـ

« فكرة لا بأس بها »

ورفع (سورا) يده قائلاً : ـ

« موافقون ولكن بشرط »

ـ « وما هو ؟ »

ـ « أن يكون البادىء منكم ، إن شوقنا كبير لنعرف ماذا جرى فى الكون بعد مماتنا ، فى آخر الزمان .

لا بأس ، اتفقنا . .

وقلّب أحمد نظره فى إخوانه الستة المتحلقين حوله . .

ـ « من يتطوع يا إخوان ؟!»

ـ « إننى مستعد . . »

كان المتحدث هو يوسف أرسان . . أسد الجبال . .

ابتسم له أحمد ـ وقال : ـ

« فلتحك إذن . . ولتبدأ من البداية . . »

ولمعت عينا يوسف وهز رأسه قائلاً : ـ

« من قلب الجبل . . »

(2) الجبـــل : ـ

الزمن هو القرن الخامس عشر للهجرة . . والجبل جبل (أركاد) ، يقف صلباً ساكناً بين قمم القوقاز الشاهقة ، بتاجه الثلجى اللامع ، وصخره القاسى ومسالكه الوعرة ، تلك التى تعرفها أقدام المجاهدين كما تعرف الصقور أوكارها . .

من سفح الجبل يصعد ذلك الممر الدائر ، فتكون قمة الجبل عن يمينه ، وعن يساره المنحدر الصخرى الرهيب ، يكفى أن تزل القدم عليه ليهوى سالكه إلى الهاوية ، لكن أقدام المجاهدين لم تكن لتزل ، بل تصعد فى خفة ومهارة لتصل إلى باب العرين . .

والعرين غار مدفون فى أحضان الجبل ، يتخذه مقاتلو الجبال مقراً منذ مئات السنين ، هو شاهد على كفاحهم الطويل ضد كفار الروس ، بابه يعلو عن الأرض 15 متراً ، وتحميه مجموعة من الصخور المدببة الصلبة ، تكون على يسار الداخل قبل أن ينعطف يميناً ليدخل الغار ، فيجد نفسه فى بهو متسع ، ينتهى فى اليمين إلى ما يشبه الباب ، والذى يقود إلى (الغرفة الداخلية) فى العرين ، وفى نهاية تلك الغرفة تتقارب جدران الغار الصخرية ، وتنحدر إلى أصل الجبل ، إلى أين ؟؟ لا أحد يدرى . . كان ذلك فى ليلة من ليالى الربيع ، وقد انقضى من الليل شطره الأكبر ، لا زال يوسف فى مكانه يحرس العرين ، يجمع عليه ثيابه الصوفية الخشنة ، ويعتصر سلاحه كأنما يستعجل أوان القتال . . هو اليوم فتى فى الثامنة عشرة ، له شعر بنى أشعث ، ولحية لم يتكاثف شعرها بعد ، يقلب عينيه بين قمم القوقاز المزينة بتيجان الثلوج ، وسفوحها الصخرية الوعرة .

وتتردد فى أعماقه كلمات :ـ

« هى أرض الله . . جعلها أمانة فى أعناقنا . . ولن نفرط فى أمانة الله » .

كانت تلك هى كلمات (أبو خالد) قائد الكتيبة ، وهو مقاتل فى الأربعين ، من أولئك الجبليين الذين رضعوا القتال مع

اللبن ، وورثوه كابراً عن كابر ، ولو أننا دخلنا خطوات قليلة إلى الغار لوجدنا (أبو خالد) نفسه يجلس إلى منضدة صغيرة ، عليها راية سوداء منصوبة على حامل صغير ، وشمعة توشك أن تنطفىء ، وخريطة قديمة يدقق فيها مستغرقاً فى التفكير ، حتى أنه لم يشعر بيوسف وهو يدخل إلى الغار ، ويسأله فى صوت خفيض :ـ

« هل أوقظهم للصلاة ؟! » .

وانتبه (أبو خالد) إلى صوته ، ورد على سؤاله بسؤال أخر :ـ

« كم الساعة الآن ؟ »

ـ « إنها الثالثة . . فيم كنت تفكر ؟ »

ـ « هذه الخارطة يا يوسف ، لقد رسمها بعض أسلافنا من مقاتلى الإمام شامل ـ رحمه الله ـ لهذه المنطقة ، ويبدو أنهم كانوا يأوون إلى نفس هذا الغار ، هناك سهم يشير إلى ذلك السرداب . . لكننى لا أستطيع أن أتبين ما يعنى . . »

وأشار إلى موضع السرداب البادئ من الغرفة الداخلية ، فرد يوسف قائلاً :

ـ « إنه لعجيب أن نأوى إلى هذا الغار شهراً دون أن نعرف

إلى أين تـؤدى هذه الهـوة ، يخـيـل إلى أنهـا تقـود إلى أصـل الجبل . . أحياناً ألقى فيها صخرة فلا أسمع لها وجيباً ، يبدو أن الهوة لا قرار لها .

ـ « الخريطة تشير إليها باعتبارها أحد منافذ الغار ، ولكن كيف . . هذا ما لا أستطيع التأكد منه » .

وقبل أن يفتح يوسف فمه ليرد ، علا فى المكان صوت متقطع ، هب له أبو خالد واقفاً ، وانتزع من جانب حذائه جهازاً صغيراً يصدر عنه الصفير ، كان للصوت إيقاع مميز ليس له فى عرف المجاهدين سوى معنى واحد . .

ولاح فى عينى (يوسف) بريق الشوق . . لقد حان وقت الخروج . .

وقت البحث عن الشهادة .

* * *

بعد لحظات ، كان أنور قلايف يرتدى حذاءه الثقيل ، وبكويف بهاء الدين ينظف سلاحه القاذف للصواريخ ، و (أبوذر) يحجل على ساقه الوحيدة ليثبت الأخرى الخشبية ، وتكامل العدد باستيقاظ رمضان وفا ، وآدم خليفة ، وداود ، وعربى ، وقفوا هنالك يتهجدون ، يسألون الله الشهادة فى هدأة الأسحار . . وقفوا بأجسادهم الصلبة . وبريق عيونهم

الدامعة . . كانعكاس أشعة القمر على صفحات الثلوج . .

وعند سفح الجبل كان القادم يخطو على طريق الغار بخطواته الوئيدة ، وعصاه الخشبية التى لا تفارق يده . . بعد وصول الرسالة بساعة ، لا يتأخر . . ولا يضل الطريق ، إنه الشيخ حنيف ، فلاح عجوز فقد داره وأهله فى القصف وذهب يهيم على وجهه بين الجبال ، هكذا كان يقول لكل دورية روسية تستوقفه ، يتضرع إليهم ليدعوه حياً ، ولم يكونوا ليدعوه فى أغلب الأحيان ـ دون أن يدفع إليهم شيئاً من طعامه القليل يسد جوعهم ، أو ـ إذا جد الجد ـ قطعة ذهبية من حلى زوجته المسكينة الراحلة ، هكذا كان يقول ، ولم يكن يكذب فى هذا كله ، إلا أن هناك الكثير مما لا يقال . .

كان يقترب من باب الغار فى همة لا تناسب هيئته أوسنه ، وحين دخل إلى الغار ، صافح (أبو خالد) ، وأسر إليه بكلمات قليلة ، لم يندهش يوسف هذه المرة ، لقد فهم العلاقة بين الصفير المتقطع ، وقدوم الشيخ ، والخروج لعملية جديدة . .

والتفت أبو خالد ينظر فى حزم هادىء إلى الوجوه المتطلعة إليه . . وقطع أبو ذر حبل الصمت قائلاً : ـ

« هيه . . بشرنا بالشهادة يا أبا خالد » . .

كان الشيخ قد اتكأ على عصاه من جديد ، واتخذ طريقه

المنحدر إلى سفح الجبل ، ودون أن يلتفت إليهم سمعوه يردد :

فى سبيل الله يا أبنائى . . « تقتلون وتُقتلون ! ! »

(3) ـ صرخة .. أسكتها الرصاص :

ـ « اقتلهم »

نطقها الجنرال فى هدوء ، وهو يرفع إلى شفتيه قهوة الصباح سرت رعدة فى جسد الملازم الشاب . (فيودور) ، وبدا له صوت الجنرال عميقاً . . قاسياً كالصخر . . كان يبحث عن صوته هو ، ليقول إنه لا داعى لقتل ثلاث نساء هاربات من قصف القرى لمجرد أنهن من الشيشان لكن نظرة من عينى شامانوف الزرقاوين أخرست صاحبنا ، فلم ينطق سوى بكلمة واحدة مهزوزة : « سيدى . . . . ! »

وساد الصمت لحظات قبل أن ينبعث الصوت العميق ثانية :

« قلت أقتلهم . . »

ومد الجنرال يده فى وقار إلى شطيرة من الجبن أمامه ، ليشعر فيودور أن المقابلة قد انتهت . .

كان ذلك هو الجنرال الروسى جينادى شامانوف ، قائد اللواء الثامن من قوات الديسانت ، وهو كهل يقترب من عامه الخمسين ، له شعر أشقر وعينان زرقاوان حادتان كعيون الصقور

يتمتع بالقدرة على إزهاق الأرواح فى هدوء عجيب ، وقد أكمل إفطاره دون أن يفكر لحظة فى تلك النسوة اللاتى أمر بقتلهن ، بينما خرج فيودور متخطباً ، لاعناً ضعفه وعجزه أمام الجنرال ، وحين وصل إلى الموضع الذى تعسكر فيه سريته بالقرب من نهر سونجا الشيشانى ، كان يفكر فى الجدوى من قتل ثلاث نساء ، أسرع إليه كلبه بوشكا يستقبله ، ويهز ذيله القصير فى مرح ، بينما تطلع إليه تابعه إيفان فاسيلفيتش بغباء زائف ، كانت هناك زمرة من الجنود الجائعين يتخاطفون بعض الأطعمة بعد أن انتزعوها من النساء الأسيرات ، بينما وقفت مجموعة أخرى تسترق النظرة إلى خيمتهن ، وتوجه فيودور إلى الخيمة شاحب الوجه ، مقطب الجبين ، فانفض أولئك الجنود عنها ، وأقعى الكلب فى سكون وترقب ، كان بالخيمة ثلاثة من النساء اثنتان فى سن الشباب فزعن منه حين رفع باب الخيمة المهترئ . . وضمت إحداهن طفلها الرضيع إلى صدرها ، أما الثالثة فكانت فى نحو الخمسين ، رابطة الجأش ، من تلك النسوة اللاتى اكتسبن الصبر والجلد من طول ما مر بهن من آلام . . كانت تذكره بأمه التى تركها فى (جيسكايا) ، يقولون : إن لها ابناً بين صفوف الجبليين ، وكيف تقف ثابتة هكذا ؟ . . تواجه الموت بنظرة لا تعرف الخوف . . لا تعرف الضعف أو المذلة ؟ خطا خارجاً . . والتفت إلى إيفان الواقف بسلاحه على باب الخيمة ،

أراد أن يقول له : (اقتلهم) ، لكن الكلمة انحبست فى حلقه ، إيفان هذا ليس غبياً كما يبدو عليه ، إن فيودور يعلم جيدا أنه عين شامانوف ويده فى هذه السرية ، فالشك عند الجنرال هو الأصل وجميع ضباطه خونة حتى يثبت العكس ، هاهو إيفان يختصر عليه الطريق . . ويسأله سؤال من لا ينتظر الإجابة :

« أقتلهم يا سيدى ؟؟ »

وهز فيودور رأسه بحركة آلية . . وقد ازداد وجهه شحوبا ومن خلف ظهره سمع صرخة .

أسكتها صوت الرصاص .

ساد الصمت لحظة بعدها . .

وعوى الكلب عواء طويلاً . .

* * *

« يسمونه بالذئب . . لكنه فى الحقيقة كلب عقور . . »

قالها أبو خالد ، وهو ينظر إلى عيون مقاتليه الحمراء من التعب والحماس . .

« إنه جينادى شامانوف ، تعرفونه بالطبع ، فما فعله بأهلنا فى نجيورت وغيرها لا ينس ، مبدأه هو (القتل للجميع) وقادته فى موسكو يعرفون ذلك ، لكنهم يغضون الطرف عنه لأنه يحقق

ما يريدون ، إنه لا يترك بيتاً إلا دمره . . ولا مسجداً إلا دنسه » .

اكتست الوجوه بسيماء الجد ، واتجهت العيون إلى حيث يشير أبو خالد على الخارطة الممتدة أمامه على الحائط . .

من هنا انطلق بلوائه المدرع ، وهو الآن يتحرك بحذاء النهر متجهاً نحو الجنوب ، نحو (شانيورت) . . والمهمة المعلنة هى كالعادة (تمشيط الجبل) . . وأنتم تعلمون ماذا يعنى تمشيط الجبل فى هذا الوقت بالذات .

والتقط أبو خالد أنفاسه قبل أن يردف :

« إن إخواننا فى شانيورت غير مستعدين لملاقاة عدو بهذا الحجم ، وفى نفس الوقت سيكون انسحابهم كارثة على أهل المنطقة ، إن هذا الكلب لا يتورع عن أى شىء . . »

ازدادت العيون احمراراً ، وغلت الدماء بالغضب ، واختتم أبو خالد كلامه بجملة تلخص المطلوب . .

« اللواء الآن يعسكر ها هنا . ومهمتنا أن نمنعه من الوصول إلى هنا . .

وبأى ثمن !! . . »

وأشار إلى نقطة على الخارطة . . ثم أردف . .

« خذوا أهبتكم . . سنتحرك عند الغروب . . »

وقام كل مقاتل إلى سلاحه يشحذه للقتال وبقى يوسف قائماً يحدق فى الخريطة . . رأى أبو خالد فى عينه نظرة وجلة ، فربت على كتفه قائلاً :

« أعرف يا يوسف . . »

والتفت إليه يوسف فى دهشة ، فقال : ـ

أعرف أن أمك وشقيقاتك فى (نجيورت) ، وأنك لا تدرى عنهن شيئاً ، سلم أمرك لله ، يقضى ما يشاء .

ـ « لقد علمت أنهن خرجن مع اللاجئات . . ولا أدرى إلى أين ذهبن . . »

وكرر أبو خالد كلمته الأخيرة . .

ـ « يقضى ما يشاء ! ! »

***

كانت الشمس قد غابت لتوها . . وتركت من ذكراها شفقاً يحوم فى الأفق البعيد . . لم يكن كافياً لتبين الوجوه الصارمة . . والأقدام الثقيلة الواثقة . . تعرف طريقها بين صخر الجبل . . ينحدرون . . وندف الثلج العالقة على ثيابهم تتناثر ، ألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله ، عَبر المجاهدون (سونجا) فى قاربين من خشب ، كان استخدام الجسور محفوفاً بالمخاطر ، وحين وصلوا

إلى الضفة المقابلة ربطوا القاربين بين الأشجار والحشائش ، وعبروا الطريق الموازى للنهر إلى الأحراش الملتفة على جانبه ، وتوقف أبو خالد فتوقف الجميع . . وتعلقت به عيونهم . . وخرجت كلماته سريعة ـ «أنور ، يوسف ، بهاء الدين وعربى . . معى نحو النهر . . الباقون ينتشرون على خط مواز انصبوا قاذفاتكم . . وأميركم أبو ذر . .

عند أول تكبيرة تبدأون القصف . . اذكروا الله كثيراً . . واستغفروه لذنوبكم . . فذنوبنا أخطر من أعدائنا . . »

وارتفع صوت يتساءل :

« وأنتم ؟؟ »

ولمعت عينا أبى خالد . . وهو يقول « سنأتيهم من حيث لا يدرون » .

***

صباح الخير يا سيدى

كان القائل هو النقيب « أناتولى تروشيف » بصوته الخفيض الماكر ، ومشيته المنحنية إلى الأمام قليلاً ، كان الجميع يعدونه المستشار الشخصى لشامانوف ، وقد كان الأخير بحاجة إلى آرائه الشيطانية فى تلك اللحظة بالذات ، فقد كان يحدق فى الخريطة المعلقة أمامه . . وهو يحاول أن يرسم خطة ما ، رد التحية بحركة من يده . .

« أهلاً . عزيزى تروشيف . . جئت فى وقتك . »

كان شامانوف يقرب تروشيف ، ويعجب بآرائه التى لا تعرف الرحمة ، والتى ترقى بفضلها فى مراتب الجيش الروسى دون أن يفطن الكثيرون إلى أصوله اليهودية . .

« فى خدمة سيدى » ، قالها فى ذلة مصطنعة ، فأشار شامانوف إلى الخريطة قائلاً :

« هذه الجبال تبدو لى كالبحر الهادىء تتجول فيه الأسماك القاتلة ، من الصعب أن تتنبأ من أين يهاجم هؤلاء المجانين ، إنهم يخرجون من بين الصخور فجأة . . ولا يبالون بما حدث لهم »

ابتسم تروشيف نصف ابتسامة . . وتطلع إلى شامانوف فى دهاء . . وقال : ـ

« صيد الأسماك ليس بالأمر المستحيل . . إنه يحتاج فقط إلى التضحية بطعم من الديدان . »

وساد الصمت هنيهة . . قبل أن يرد شامانوف :

« يخيل إلىّ أننى أفهم ما تعنى . »

اتسعت ابتسامة تروشيف . . وهو يشير إلى الطريق الموازى للنهر . . المتجه إلى شانيورت :

« هذا الطريق محفوف بالمخاطر . . ونستطيع أن نقول إن أول مفرزة من جنودنا ستعبره سوف تتعرض للهجوم لا محالة . . وإذا كنا نحن قريبين عند ذاك فسنسحق المهاجمين . . ولن تكون الخسائر كثيرة .

ـ « الخسائر لا تهم يا صديقى . . النتائج هى المهم هنا . . إن النصر لا يدع فرصة للحديث عن الخسائر ، هناك أناس فى هذا الجيش لا يصلحون لشىء سوى مثل هذا الدور ، لا يصلحون للحياة ذاتها . . أناس من الديدان ومن حسن حظهم أن تدوسهم أقدام الكبار فى طريقهم إلى المجد » .

وحين جلس شامانوف ليصدر أمراً بالتقدم للملازم فيودور وسريته ، كانت عيناه تلمعان ببريق غريب ، ولم يكن يفكر فى شىء سوى المجد . . والنصر . . واسمه الذى يدوى فى كل مكان .

* * *

كان الظلام قد حل . . وأطبق بلونه القاتم على الآفاق ، خيّم صمت رهيب على كل شىء . . فلم يكن يتناهى إلى سمع يوسف سوى صوت أنفاسه اللاهثة .. ورجع دعاء كروان بعيد . . حتى صوت الأقدام العشرة الساعية نحو النهر لم يكن مسموعاً ، كان يوسف يتطلع نحو النهر الجارى أمامه . . تنعكس

على صفحته أضواء النجوم الخافتة . . النهر . . والآفاق . . وصوت الكروان . . كلها تذكره بزمن مضى . . وبوجه أمه الحازم الحنون وهى تودعه وتوصيه بأن يكون رجلاً . . وألا يميل عن نهج الجهاد ، لطالما تعجب الناس من الشبه بينهما ، هل يا ترى له مثل ذلك الوجه الصابر الحنون ؟؟ لطالما خرجت به إلى هذا النهر لتملأ جرارها . . كم كان يفلت منها إلى النهر يسبح فى مياهه ، فى مثل هذه المراعى قتل أبوه ، قتله الروس ذات صباح ، خرج يرعى الغنم . . ولم يعد أبداً ، كان على يوسف أن يجد طريقه . . لم يكن هناك سوى طريق واحد يتيح له أن يظل إنساناً وأن تظل له كرامة . . طريق الجهاد . . هكذا قالت أمه وهى تودعه . . ترى أين هى الآن . . ؟ وأين أخته المرضع ؟ لقد قُصفت قريتهم حتى أعياها القصف . . لابد أنها الآن خراب فى خراب ، لابد أنهن خرجن مع اللاجئين والضعفاء . .

يدٌ قوية على كتفه ، أخرجته من سيل الذكريات والأسئلة ، ليرى نهر (سونجا) يجرى أمامه فى الظلام ، كان الخمسة يقفون على حافة منحدر طينى تتخلله الصخور والأعشاب ، وينتهى إلى الماء الجارى من تحتهم ، وكانت اليد يد (أبو خالد)، وتلاقت العيون . . .

شق الصمت صوت أبى خالد الصارم ـ هنا تبدأ مهمتنا ، سيكون كل منا على بعد عشرين خطوة من أخيه وسيبحث كل أخ عن صخرة يثبت فيها حبله ، ويربطه حول خصره ليأمن الانزلاق نحو النهر ثم يكمن بسلاحه القاذف على المنحدر ، حين تسمعون التكبير . . سيصعد كل منكم إلى حافة المنحدر ، ونبدأ القصف

ساد الصمت لحظات ، وخالط يوسف شعور غريب . . جو من الجلال والرهبة . . يشد العيون والقلوب إلى الأمام ، لا يترك خياراً وسطاً ، هو النصر أو الموت ، قلب عينيه فى الآفاق وبين النجوم ، لتستقر على صفحة الماء الأسود . . ربما كان قبرى هنا ، بين أكفان الظلام . . ومرة أخرى خرجت كلمات أبى خالد ، كأنما لتخاطب قلبه وخواطره . .

« لا تنظر إلى الوراء ، لقد بعت والله اشترى ، سنرفع كلمة الله العليا ، أو نحملها إلى جنات الخلود ، هذا الظلام نور من نور الله لا تحجبنا عنه سوى أستار الدنيا الثقيلة ، بيننا وبينه خطوة ، فالموت عندنا حياة . .

. . الموت عندنا حياة » .

***

(4) الموت عندنا حياة :

كان الليل قد انتصف أو كاد ، توقفت السرية السادسة من

لواء الذئب على ضفة (سونجا) ، خرج فيودور من عربته المصفحة ، ومضى على ضفة النهر بلا هدف ، لم يستمع لإيفان حين عرض أن يتبعه لحراسته ، إنه يمقت ذلك الوغد اللزج ، كان رأسه يعصف ، وألف طلقة من الرصاص تدوى فى أركانه الخربة ، لتسكت صرخة لا تسكت وجه المرأة شاخص أمام عينيه ، يراه على كل شىء . . حزيناً . . صابراً ، لا يعرف الوهن أو المذلة . . لو أنها صرخت . . لو أنها استعطفت أو تذللت ، ولكن . . ماذا كنت لأفعل ؟؟ وذلك الذئب قابع على كرسيه الفاخر يعطى أوامر القتل ، ويحتسى قهوة الصباح ، الجبان . . يدفع بنا إلى الموت ويبقى هو فى المؤخرة . . يأتى بعد نهاية المعارك . . يسلى وقته برؤية الجثث والأشلاء ، ماذا بيدى لأفعل ؟ . . أنا ضعيف . . وهو وحش كاسر . . لماذا تلومينني ؟! لماذا تنظرين إلىَّ هكذا . . وجهك فى كل مكان . . على كل شىء . . حتى على صفحة النهر الجارى فى الظلام . . حتى هنا . .

وانتبه فيودور إلى صخرة تحت قدمه . . وعثرت ساقه فى حبل مربوط بالصخرة . . كان قد بلغ المنحدر الهابط إلى الماء ، تتبع بعينيه الحبل إلى النهاية . . رأى وجهاً يطالعه بنظرة حازمة . . صارمة . . تواجه الموت بلا وجل . . ولا خوف . . نفس الوجه ونفس النظرة . .

كان أبو ذر . . يحجل على ساقه الخشبية . . يتنقل فى حماس بين مواقع إخوانه الرابضين فى الأحراش يطمئن عليهم . . ويذكرهم بالله ـ عز وجل ـ وأجر الشهيد الحى عند ربه حين جاءه الخبر من طليعة جنوده أن سرية من الأعداء قد دخلت نطاق الرؤية وأنها تتقدم ببطء على ضفة النهر . . .

خمس عربات مصفحة وسبع دبابات ، ساد الصمت البليغ وأعد كل مجاهد سلاحه وأخذ أهبته . . واستعد أبو ذر لإعطاء إشارة الهجوم . .

وفجأة . .

تناهى إلى سمعه وقع أقدام تسعى بين الأحراش . .

أقدام . . تعرف الطريق إليه . .

* * *

بدأ يوسف يشعر بدوار خفيف ، كان معلقاً كباقى إخوانه على المنحدر . . بين السماء المظلمة من فوقه . . وأعماق النهر المظلمة من تحته ، حافة النهر عند موضعه تنحدر بزاوية شبه قائمة لم يكن فى متناول يده شىء يتشبث به ، راح الحبل يتأرجح به يمنة ويسرة ، حزمة من أعصاب ملتهبة تنتظر الإشارة . .

رفع رأسه إلى السماء . . « أعلم أنك هناك . . ترانى من

فوق عرشك . . اللهم اجعل ما أصابنا ويصيبنا فيك يا رحمن . . يارحمن . . . »

وتجاوبت الآفاق بنداء قلبه الوجل ، وذابت مع تسابيحه ، لكن شيئاً واحداً خرج على إجماع الكون . .

قطعة من ظلمة الليل . .

حذاء ثقيل حجب نجوم السماء عن عينيه . .

وأبصر يوسف صخرته التى تعلق بها تتأرجح تحت الحذاء . . وتكاد تنحدر إليه لتأخذه إلى الأعماق . .

***

فى جزء من الثانية ، كان أبو ذر قد دار على ساقه الخشبية نصف دورة ، واتخذ ساتراً من الشجرة الممددة على الأرض خلفه ، وصوب سلاحه نحو الصوت القادم من بين الأحراش .

« وما تصنع بقتل شيخ مثلى ؟؟ »

كان صوتاً يعرفه جيداً . . صوت الشيخ حنيف . . يدب بعصاه الطويلة بين النباتات والصخور . . وهتف أبوذر :

« الشيخ ؟! ماذا جاء بك فى هذه الساعة ؟! ألم تشعر أننا على وشك الهجوم ؟؟ »

رد الشيخ فى جد صارم : « اسمع يا أبا ذر . . ما لدى من

الأخبار لا يقبل التمهل . . لقد ألقى إليكم شامانوف سرية من لوائه لتظفروا بها وهو يتقدم الآن بباقى جنده على طريق بعيد عن النهر . . ليفاجئكم من خلف ظهوركم . . »

وابتسم أبو ذر :

« لقد فعلها الكلب . . يترك لنا جنده نطوقهم . . لنظهر له . . ويطوقنا هو . . »

وهتف آدم : ـ

« ألا يخاف على جنوده هؤلاء ؟! »

فرد أبو ذر :

الذئب لا تعنيه النفوس . . إنه يزهقها بلا رحمة . . حتى لو كانت لمواطنيه مادام فى ذلك مجده وانتصاراته . .

ـ « ألا يمكن أن نتحول إليه . . ونواجهه مباشرة ؟! »

ـ « ونترك إخواننا عند النهر لسريته المتقدمة ؟؟ ستسحقهم ثم تهاجمنا من الخلف ، هذا إذا استطعنا مواجهته فى حرب سافرة مع فارق التسليح الرهيب » .

وساد الصمت ، وبدا على أبى ذر التفكير العميق . . وقال كأنما يخاطب نفسه :

« نحن نحاصرهم وهم يحاصروننا !! »

فهمس الشيخ : « والله محيط بالكافرين »

ـ « صدقت يا شيخ حنيف . . كم من الوقت يحتاجه شامانوف ليتخذ موقف الهجوم من خلفنا ؟! . . »

ورد الشيخ فى ثقة . .

ـ « نصف ساعة تقريبا . . »

ـ « حسناً . . أمامنا نصف ساعة كاملة لنسحق طعمه . . ثم نختفى من هنا ، آدم . . وداود ، أسرعا لتفقد القوارب » .

رد الشيخ بسرعة : ـ

« لقد أحرقوها . . »

ـ « إذن ليس أمامنا إلا الجسر ، إنه ليس بعيداً . . يجب أن نؤمن طريقاً سريعاً للانسحاب والتفت أبو ذر إلى حنيف قائلاً : « كن فى مأمن يا شيخ نحن بحاجة إليك » .

وابتسم الشيخ فى حزن . . وسرحت عيناه إلى الأفق . .

« لا تقلق بشأنى يا بنى . .

لقد اشتقت إلى الأحبة »

لم يكن هناك وقت للتفكير . . أخذ أبو ذر أهبته ثانية . . وتقدم فى صفه ليطبق على السرية . . كبر بأعلى صوته . . وأطلق القذيفة الأولى ، فانفتحت بحار النار . .

***

(5) الأسـير :

أضاء الليل بوهج النار القادمة من كل مكان ، وتوالت القذائف ، انفجرت عربة فيودور أولاً ، وحملت شظاياها إيفان إلى أعلى أمتاراً ، لتعيده إلى الأرض أشلاء متناثرة . . لم يبق من جسده سوى ذراع مبتورة ، ورأس معلقة بها ، على وجهها فزع هائل ، وفى العينين نظرة لا معنى لها ، وجاءت ملائكة العذاب تجمع النفوس البائسة الكافرة ، لتحملها إلى سجّين ، وتترك أجسادها الممزقة مدفونة فى الطين والدم ، أما فيودور فكان ممدداً على ضفة النهر ، ينزف الدم من جرح الشظية المدفونة فى كتفه ، وقد ازداد وجهه شحوباً ، وتسارعت أقدام المجاهدين فى قفزاتها بين الحطام والأشلاء ، تجمع السلاح وتجهز على من بقى حياً . . لا وقت لحمل الأسرى ، هكذا أمر أبو ذر ، وبعد لحظات ، كان هو بنفسه يمسك بتلابيب فيودور ، ويصوب سلاحه الرشاش نحو رأسه الحائر ، ويضغط الزناد ؟ . .

***

لماذا يحدق فى هذا الروسى هكذا ؟؟ . . لماذا لا يطلق النار ؟؟

كان السؤال يدور فى عقل يوسف حين توهجت السماء بنار القذائف ، وهوى الروسى إلى الأرض . . وتلفت يوسف ليرى

إخوانه الكامنين على حافة النهر قد تسلقوا المنحدر ، واشتركوا فى الهجوم ، وحين وصل هو إلى الأرض واستوى قائماً كان كل شيء قد انتهى ، وكان الروسى جريحاً فزعاً يحملق فى أبى ذر وسلاحه المصوب إلى رأسه ، وصرخ يوسف : ـ

« لا تقتله ؟ »

وتوقفت يد أبى ذر على الزناد ، والتفت إلى يوسف فى حدة . .

« لا وقت لدينا يا يوسف ، شامانوف يكاد يطبق علينا ، يجب أن ننسحب بسرعة »

ـ « لا تقتله . . لقد كانت حياتى بيده من لحظة ولم يقتلنى ، لن يكون أكرم منا . »

ـ « إذا اصطحبناه سيعطلنا ، وإذا تركناه سيدلهم على اتجاه . . »

وانقطعت كلمات أبى ذر السريعة بصوت هادىء حازم يعرفه الجميع إنه أبو خالد الذى فصل بجسده بين المتجادلين ، وأعطى أمره القاطع . .

ـ « خذه يا يوسف . . إنه أسيرك . .

أمامنا خمس دقائق لنبلغ الجسر . . »

كان أبو خالد قد علم بأمر شامانوف وخطته ، وتوالت

الأخبار من عيونه المنتشرة فى الجبال أن الذئب يتقدم بصف المدرعات ليطبق على كتيبة المجاهدين بقوس من النيران يحصرها إلى النهر ، وكان الجسر هو الأمل . .

***

ـ « وما ذنبى أنا ؟ . . إن كنت أعمل مع طيران غبى ، يقصف القرى والمستشفيات ويترك ذلك الجسر اللعين قائماً . هناك يتحدانى ؟! »

كان شامانوف يخاطب نفسه ، وهو ينظر عبر المقرب (التلسكوب) إلى الأمام ، كانت عربته المصفحة تسير وسط غابة من الدبابات ، ومن خلفه كان تروشيف يسأل فى دهاء : ـ

« عم تتحدث يا سيدى ؟ »

ـ « عن الجسر . . الجسر يا تروشيف . . إنهم متجهون نحو الجسر ، ويكفى أن يعبروه ليذوبوا فى الجبال مرة أخرى ، ويضيع كل عملنا هباء . »

ـ « وقد غفل الطيران عن ذلك الجسر ، وليس لدينا وسيلة سريعة لنسفه . . »

ـ « بالضبط . . . بالضبط »

ـ « لكنك قد نسيت أمراً هاماً يا سيدى الجنرال . . أمر يقلب كل الحسابات . . نسيت أن تروشيف هنا . . وأنه لا ينس ؟؟»

والتفت إليه شامانوف فى دهشة وراح يحدق فى ابتسامته الماكرة . .

ـ « تروشيف . . إنك . إنك تخفى شيئاً . . هل أعددت لهم فخاً ؟ »

ولم يرد تروشيف فأردف شامانوف قائلاً : « الجسر ملغوم أليس كذلك أيها العزيز تروشيف ؟ أليس كذلك ؟! » واتسعت ابتسامة تروشيف . . .

فبدا كالشيطان . .

* * *

الجسر ملغوم . .

قالها داود ، وساد بعدها صمت رهيب ، كان يقف بينهم وبين الجسر ، بينما كان آدم مستمراً فى محاولاته لجسّ الألغام وإبطال مفعولها ، كان الجميع يعلمون أن عملاً كهذا سيستغرق ساعات ووجمت العيون .

كان أبو ذر أول من تكلم ، التفت إلى الأحراش من خلفه ، وأشار بعصاه الخشبية إلى حيث تتقدم جموع شامانوف التى صارت على مسيرة دقائق .

ـ «هى الشهادة إذن ، هى الجنة تنتظرنا ها هنا»

وعلا صوت أبى خالد الصارم ـ « ستتقدم مجموعة لتفدى بقية الكتيبة بنفسها . . سنصنع فوق الجسر جسراً من الشهداء»

وارتفعت الأيدى جميعاً تطلب الشهادة وتتنافس إلى الفداء ، فانتدب القائد منها سبعة ، تقدموا واصطفوا على بعد أمتار من الجسر ، كان يوسف إلى جنب أبى ذر ، تشابكت الأيدى ، ونطقت الألسنة بشهادة الحق وتقدموا . .

لكن صوتاً أوقفهم . . صوت يعرفه الجميع ؟

كان الشيخ يسوق أغنامه ويتقدم بها ، ويبتسم :

« ألم أقل لك يا أبا ذر . . قد اشتقت إلى الأحبة !!!»

ـ « لا تتقدم يا شيخ . . إننا . . »

وضاعت كلمات أبى خالد بين الانفجارات ، وتناثرت أشلاء الغنم فوق الجسر ، والشيخ بينها يتقدم ويتقدم وفى منتصف الطريق . . انفجر اللغم تحت قدمه محدثاً دوياً هائلاً . . وارتفع جسد الشيخ أمتاراً فى السماء قبل أن يستقر وسط أغنامه الشهيدة ، كانت يده لا تزال متشبثة بالعصا ، وشفتاه ترتعشان فى محاولة أخيرة للابتسام . .

كان يعلم أنها . . آخر الآلام . . !!

* * *

فتح فيودور عينيه بصعوبة وراح يتأمل السقف والجدران الصخرية المتعرجة ، كان محموماً . . معصوب الرأس بخرقة بالية ، وكان جرح كتفه يرسل فى الجو رائحة كرائحة الشواء من أثر الكى . . خيل إليه أنه يحلم . . الوجه الصارم الحزين . . وصرخة لا تنتهى . . عواء الكلب الطويل . . النار والدم . . وأشلاء الغنم المبعثرة . . كلها بدت له جزء من حلم طويل . . لكن وجه يوسف الذى أطل عليه داخلاً أعاده إلى عالمنا . . بابتسامة خفيفة . . وكسرة من الخبز ألقاها بين يديه ، وشربة ماء . . راح فيودور يحدق فى وجه يوسف الباسم قبل أن يسأل :

« لماذا لم تقتلنى ؟ »

وأجاب يوسف ببساطة :

« ولِمَ لم تقتلنى أنت ؟ »

أطرق فيودور . . ولم يرد . . وبعد لحظة من الصمت . قدم إليه يوسف قطعة من الخبز ، وأخذ يقضم قطعة أخرى قائلاً :

« كل . . هذا نصيبى مما تبقى لدينا من مؤن»

ـ « وتقتسمه معى ؟ »

ـ « ولم لا ؟ ألست أسيرى ؟؟ »

ـ « هل كنت تنوى حقاً أن تسير فوق الألغام ؟ »

فوجم يوسف لحظة ، ثم قال : ـ

ـ « شهادة لم تكتب لنا . . استأثر بها الشيخ »

ـ « قد تكون معقولة من ذلك الشيخ الذى سئم الحياة . . ولكنكم شباب . . والحياة أمامكم !! »

ونظر يوسف إليه نظرة إشفاق . .

ـ « الحياة ؟! الحياة كانت تنتظرنا عند ذلك الجسر لو عبرنا . . لو عبرنا من دنياكم الحقيرة إلى حياتنا الأبدية ؟؟ »

بدت الحيرة على وجه فيودور . . وأردف قائلاً : ـ

« هذا هو الفرق بيننا وبينكم . . أنتم تثقون بأشياء لا أرى . . ولا تُحس : الفردوس . . الجحيم . . الحياة بعد الموت . . »

ـ « إننا نثق بالله . . الله الذى خلقنا ووعدنا برضوانه وجنته إن أطعناه وجاهدنا فى سبيله . . »

لكنكم تحاربون فى معركة خاسرة . . تحاربون منذ مئات السنين ، ولا تحصدون إلا الموت .

رفع يوسف رأسه فى عزة . . . وقال : ـ

ـ « الموت عندنا حياة . . يكفى أن نلقى الله شهداء لنقول : قد وفينا . . وبعنا النفس والمال لتعلو كلمتك يارب . . ويظهر دينك . . »

سكت فيودور هنيهة . . يتأمل الكلمات العجيبة التى لم يسمعها من قبل . . ويتأمل قسمات يوسف التى تنطق بالإباء . . وأردف قائلاً :

ـ « ألا تفكر فى أهلك ؟ . . ألك أم تنتظرك ـ مثلى ـ إلى جانب المدفأة ؟ وتصلى لتعود لها حياً من هذه الحرب المجنونة ؟ »

وأسند يوسف إلى الجدار وسرح ببصره بعيداً

ـ « لى أم تنتظر أن أعود إليها بالنصر والكرامة ، وإلا فلا عليها إن لم أعد . . وعند الله اللقاء » .

« ألها نفس هذا الحزم والتصميم ؟ »

« يقولون إننى أشبهها فى كل شىء ؟ »

ومرت لحظة رهيبة قبل أن يلقى فيودور بسؤاله الأخير :

« أين هي الآن ؟ »

« فى قريتنا (نجيورت)

لابد أن القصف قد ألجأها إلى الخروج منها الآن »

واستدار فيودور إلى الجدار ليخفى وجهه . .

وانحدرت على خديه دمعتان !!!

* * *

وقف شامانوف عند ضفة النهر مقطب الجبين ، لم تكن تعنيه أشلاء جنوده المبعثرة ، وعرباتهم المحروقة ، لكنه كان يحتفظ

بهدوءه بصعوبة شديدة بعد أن عادت إليه طلائع قواته لتخبره بأن قطيعاً من الغنم قد تحول إلى أشلاء تغطى الجسر ، وبينها أشلاء لشيخ كبير ، ولا أثر للمحاربين الشيشان على أى من الضفتين ، كان مظهره يثير الرثاء . . ولم يكد يرى تروشيف قادماً إليه يسوق كلباً من كلاب الحراسة حتى صوب إليه نظرته الحادة قائلاً :

« أرأيت يا تروشيف . . أرأيت جسرك الملغوم ؟

لقد عبروه وتبخروا فى الهواء . . لا أثر لهم . . لقد ضاعوا فى الكهوف والجبال . . وخرجنا أمام الرأى العام بسرية مسحوقة لم يبق منها شىء . . . »

تلقاه تروشيف بابتسامته الأبدية :

اهدأ يا سيدى الجنرال . . إن معركتنا لم تنته بعد . . . »

وكيف ؟؟ كيف نجدهم ؟ إننا بحاجة إلى معجزة لتعرف أين ذهبوا »

سكت تروشيف لحظة ليمتص غضب شامانوف ، ثم سأله فى دهاء : « أتعرف هذا الكلب يا سيدى الجنرال ؟؟»

وأجاب شامانوف فى ضجر : « للأسف الشديد ، لم أنل هذا الشرف بعد »

وتغاضى تروشيف عن سخريته ، وقدم للكلب قطعة من اللحم وهو يقول :

« هذا الكلب يا سيدى هو المعجزة »

* * *

6 ـ رائحة الدم :

كانت دبابة شامانوف تعبر الجسر ، وتطحن تحت جنازيرها أشلاء الشيخ وأغنامه ، تركتهم وراءها كتلة مختلطة من الطين والدم ، والعظام المسحوقة ، ومضت لا تلوى على شىء ، يطل من أعلاها شامانوف نفسه ينظر عبر منظاره المقرب إلى الجبال ، بينما وقف بوشكا على بعد خطوات ، يتشمم الهواء من حوله ثم يطلق عواءً طويلاً حزيناً ، يعدو إلى الشرق ، كانت تحدوه رائحة يعرفها ، لقد نزفت هنا دماء صاحبه كما نزفت على الضفة الأخرى .

راح يعدو هنا وهناك . . ويتبع أثر الرائحة . . رائحة الدم

* * *

الليل قد انقضى أكثره ، والجبل يلفه الصمت العميق ، كان فيودور يتظاهر بالنوم ، ويرقب « يوسف » الذى وقف يناجى ربه ـ عز وجل ـ قائماً تارة ، وتارة ساجداً تذرف عيناه الدموع ، وقد

ترك مسدسه الخفيف إلى جانبه . . إن مكانة الله عند هؤلاء الجبليين مختلفة ، إن قوة جبارة تشد قلوبهم إليه ، وتدفعهم دفعاً إلى الخضوع لسلطانه ، الخضوع المحب العابد ، لا خضوعى أنا لشامانوف ونظرته النارية وأوامره الطاغية ، إننى أخضع له وأكرهه . . أكرهه من كل قلبى . .

قطع يوسف تأملات فيودور حين سلم من صلاته ، ودون مقدمات سأله : ـ

« لماذا لا تسلم يا فيودور ؟ ! »

ونظر إليه فيودور فى ذهول . . وقبل أن يجد للسؤال جواباً كان أبو ذر يدخل الغرفة مسرعاً وهو يقول فى حزم :

« قم يا يوسف . . لقد وجدونا . . »

* * *

المجاهدون خلف إمامهم ، فريق يصلى وفريق يحرس ، يصلون الصبح صلاة الخوف ، كانت الدبابات تحيط بالجبل فى نصف دائرة وفوهات مدافعها مصوبة إلى فتحة الكهف التى تمتد أمامها « بوشكا » جثة هامدة ، كان شامانوف قد أطلق عليه الرصاص بعد أن انتهت مهمته بالتوصل إلى الكهف ، ثم أمسك بمكبر الصوت وراح يلقى بتهديداته على المجاهدين ، وهم مشغولون عنه بالصلاة ، وحين سلم أبو خالد من صلاته التفت إلى جنده وألقى سؤاله إلى آدم الذى كان يراقب الموقف من

خلف صخرة أمام باب الغار : « كم عدد مدرعاتهم ؟ »

أجاب آدم

ـ « ثلاثون دبابة وعشر مصفحات » فالتفت أبو خالد إلى بكويف خازن السلاح سائلاً :

« كم لدينا من سلاح ؟! »

ـ « وفقاً لآخر إحصاء لدينا ثلاثون قذيفة خارقة للدروع ، وخمسة عشر رشاشاً ، وعشر مسدسات خفيفة ، وثلاث قنابل . . »

قلب أبو خالد نظره بين جنده ، بين عيونهم الحمراء من التعب والسهر ، ووجوههم التى أنهكها الجوع ، وتلا قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ثم قال : ـ

« إن الشهادة أسمى أمانينا ، لكننا نريدها شهادة غالية . . شهادة حارقة يكتوى بنارها الأعداء ، تحملهم إلى جهنم كما تحملنا إلى الجنة ـ إن شاء الله ـ سيشهد لنا هذا الجبل أمام الله ـ عز وجل ـ أننا لم نرض الدنية . . ولم تذهب دماؤنا هدراً »

وبدأ أبو خالد يلقى بالأوامر : ـ

« بكويف . . أحص سلاحك . . لا نريد قذيفة تخرج بلا دبابة تنفجر . . آدم وعربى . . كونا على الممر عند المنعطف ، وأرسلا كل صاعد من هناك إلى جهنم . . والباقون عند باب الكهف . . »

وقبل أن يتحرك يوسف إلى مكانه استوقفته يد أبى خالد . .

« انتظر يا يوسف . . عليك مهمة خاصة . . هناك مخرج لهذا الغار لا نعرفه . . نعرف بدايته ولا نعرف إلى أين ينتهى . . عليك به . . . »

ـ « ولكن . . . »

ـ « يوسف . . إننا لا نسعَ إلى الموت . . بل نسعى إلى النصر واستمرار الجهاد . . ولا نبالى بالموت فى سبيل الغاية . . اذهب ونفذ ما أمرتك به »

ودخل يوسف إلى الغرفة الداخلية بينما وقف أبو خالد ينظر إلى سفح الجبل . . كان شامانوف يردد فى صلف : ـ

« إننا نضمن لكم حياتكم إذا سلمتم . . اخرجوا رافعين أيديكم لأعلى . . واتركوا خلفكم كل السلاح » واعتصر أبو خالد رايته السوداء بيمينه . . وردد فى صوت خفيض . .

« سترى أيها الكلب . . »

(7) قلب الجبل : ـ

أشرقت الشمس من خلف قمة أركاد . . وأطلت على الجمع فى سكون وترقب ، كان شامانوف قد ألقى بآخر تهديداته ولم يتلق رداً ، فخفض مكبر الصوت فى غضب . . وقبل أن يأمر بالقصف ، دوت قصفة من الجبل كهزيم الرعد . . وانطلقت سبع قذائف فى آن واحد . . لتصيب سبع دبابات فى

مقدمة اللواء . . فتنفجر كلها . . وصرخ شامانوف فى جنون : ـ

« تراجعوا . . كونوا خلف مرمى نارهم . . »

وتراجعت الدبابات الباقية إلى الخلف مسافة . . ووجهت مدافعها إلى فتحة الغار . . ودوت القذائف . .

* * *

ربط يوسف حول خصره حبلاً طويلاً ، ثبته فى صخرته التى كان ينام عليها . . كان فيودور يرمقه فى حزن . . التفت إليه يوسف . . « إلى اللقاء يا هذا . . إننى ذاهب إلى رحلة قصيرة . . ربما لا أعود . . فكر فيما قلت لك ربما دفنت هاهنا معنا . . فلم لا تموت مسلماً ؟؟ وتلقى الله على دينه الحق ؟! »

ولم يحر فيودور جواباً . . أدخل يوسف رأسه فى النفق المظلم . . وكبّر . . هذه الهوة عميقة حقاً . . لكن لها منفذاً إلى الخارج ، فالصوت لايرتد مفخماً كما ينبغى إذا أطلق فى جب مغلق . .

وقبل أن يلقى بجسمه فى الهوة لمح يوسف كلمات نحتت على الصخر عند باب النفق . . كان يراها لأول مرة . . وقرأ الكلمات بصوت هامس : ـ

« أيها الداخل . . أملُك الله . . من بين أطباق الظلام . . يولد النور »

اشتد القصف على الصخرات الثلاث الحامية لباب الغار . .

وتصدعت إحداها وتهاوت إلى سطح الجبل ، فأصابت عربة مصفحة سوتها بالأرض . . ولم يهتم شامانوف لذلك . . وإنما أصدر الأمر بتركيز القصف على مكان الصخرة الهاوية . . بينما أمر أبو خالد مقاتليه بالانسحاب من خلف الصخرتين الباقيتين إلى داخل الغار . . وأوكل إلى أبى ذر وبهاء مهمة تدعيم الفجوة بالمزيد من الصخور . . تقدم بهاء أولاً ، فتلقته قذيفة حولت جسده إلى أشلاء ، وتهاوت يده القابضة على الصخرة نحو سفح الجبل ، وانتفض جسد أبى ذر قائماً على ساقه الخشبية لكن يد أبى خالد أوقفته . .

« لا فائدة يا أبا ذر . . لقد ركزوا قصفهم على موضع الصخرة . . »

وبعد لحظة صمت أردف قائلاً : ـ

« استغفروا لأخيكم . . »

ولمعت عيناه ببريق الدموع . .

* * *

تأمل يوسف الكلمات . . ولماذا نحتت ها هنا ؟؟ . . ظل السؤال يدور فى عقله وهو منحدر فى النفق ، وقد ترك خلفه سلاحه . . وحذاءه . . وراح يزحف محاولاً التشبث بنتوءات الصخور كى لا ينزلق إلى الهاوية . . لم يعبأ بقدمه التى مزقتها صخرة كحد السكين ، ولم ينتبه إلى أن الحبل الذى ربط به

خصره كان يمر قريباً من (فيودور) الذى بدأت قيوده تتفكك . . وبعد لحظة لم يجد يوسف ما تتشبث به يده فحاول تثبيت قدمه فى صخرة ناتئة رآها تحته . . لكنها أصدرت صوتاً بشعاً . وهوت ، ومعها كان يوسف يهوى . . . ويهوى إلى أعماق الظلام . .

* * *

لم ينتبه شامانوف إلى توقف القذائف القادمة من الجبل إلا حين اقترب منه تروشيف قائلاً : ـ

ـ « سيدى . . لقد أسكتنا مدافعهم . . بقى الاقتحام والتمشيط»

ـ « حقاً . . فلتتقدم مجموعات الاقتحام . . »

وتقدمت ثلاث عربات مصفحة تحت غطاء من القصف ، وزحفت إحدى العربات على الممر الصاعد إلى الغار ، ولم تكد تقترب من المنعطف حتى قفز آدم فى الهواء ، واستقر بقنبلته بين عجلاتها ، وانفجر ، وانفجرت معه العربة بمن فيها . .

صرخ شامانوف : « فليترجل الجنود ، وليقاتلوا رجلاً لرجل

قال تروشيف فى خبث : ـ

« سيدى . . لقد وصلت خسائرنا إلى خمسين جندياً حتى الآن » .

وأجابه شامانوف وهو يصر على أسنانه فى غضب هائل : ـ

« قلت لك لاتهمنى الخسائر سأقتحم هذا الجبل بأى ثمن ، فليتقدم المشاة . . »

وترجل من العربتين الباقيتين عشرون جندياً ، وتقدموا وهم يرتعدون على الممر صاعدين . . راحوا يطلقون رشاشاتهم بلا هدف أو دافع سوى الرعب الذى يتملك قلوبهم . .

وأخيراً . . وصلوا إلى المنعطف . . وعلى الجانب الآخر من المنعطف الصخرى . . كان عربى يقرأ الشهادتين . . ويتسلق الصخور . . .

* * *

توقف يوسف فجأة ـ حين وصل الحبل إلى منتهاه ـ ليجد نفسه فى ما يشبه غرفه صغيرة فى قلب الجبل . . كانت تكفى جسده بالكاد . . حدق يوسف فى الظلام الدامس من حوله . . وكاد اليأس يتملك قلبه لكن الكلمات المحفورة عند فوهة النفق ترددت فى صدره

« من بين أطباق الظلام . . يولد النور » وردد كيانه كله . . يا الله .

انتبه يوسف إلى صوت خرير للمياه . . ومن أين يأتى الماء فى قلب هذا الجبل . . أرهف يوسف السمع . . وحدد فى الظلام الاتجاه الذى يأتى منه الصوت . . وتحسس الصخرة فى متناول يده . . دق عليها بقبضته فتردد فى الصمت صوت

أجـوف . . وشـد مـا كـانت دهشـتـه حين تحـركت تحت يـده صخرة . . فانفرجت عن طاقة من النور . . كانت عيناً تجرى فى سفح الجبل ، وقد حفرت لها طريقاً فى جوف الصخور ، ربما كانت هذه العين هى ما تبقى من مسيل مائى صنع النفق كله فى زمن سحيق ، وزحف يوسف إلى مجرى الماء ، وخرج برأسه إلى ضوء الشمس ، وبعد لحظة بدأ يتبين أنه على سفح الجبل المقابل لقوات الروس ، وأن السفح من هذا الجانب خال من أى مخاطر ، وراح ذهنه يعمل بسرعة ، كان عليه أن يعود فى أسرع وقت ممكن ليدل إخوانه على المخرج ، لينسحبوا منه ، ويستأنفوا القتال فى وقت لاحق ، ومكان جديد ، عـاد بسرعة إلى النفق الذى أتى منه ، حاول أن يتسلق الصخور ليصعد إلى الغار من جـديد لكن الصـخـور فى ذلك الجـزء السـفلى من النفق كـانت شـديدة الانحـدار . . ملسـاء . . لا نتـوء فـيـهـا ، حـاول . . وحـاول . . لكنه لم يستطع الصعود شبراً واحداً . . وصرخ منادياً : ـ

« وا إخـوتاه . . » لكن صـوته تردد فى قلب الجبل . . ولم يكن ليصل إلى إخوانه المنغمسين فى معركتهم الدامية . . وساد الظلام من جديد . .

❊❊❊

لم يكد ثلاثة من جنود الروس يتقدمون نحو المنعطف حتى هوت فوق رءوسهم صخرة ضخمة أخذتهم إلى الهاوية دوّت

تكبيرة من عـربى الكامن فوق الممر بنحو مترين راح يمطر الجنود بوابل من رشـاشـه ، قـتل خـمسـة آخرين ، إلا أن البـاقين كلهم صـوبوا أسلحـتهـم نحوه ، وراح هو يطلق النار . . ويطلقهـا ، والرصاص يخترق جسده حتى لم يبق شبر فيه لم تصبه رصاصة وشعر عـربى بروحه تنسـحب من جسـده ، فنطق بلا إله إلا الله ونظر إلى السماء نظرة أخيرة . . وهوى جسـده الفانى إلى سفح الجبل ، بينما تسامت روحه إلى بارئها . . إلى جنات الخلود . .

وفى داخل الغـار ، كـان أبو خـالد يصنع مع بقـيـة رجـاله المتاريس من كل مـا تقع عليه أيديهم من صـخر ومتاع ، وصاح أبو ذر المرابط عند الباب . .

« لقد قتل آدم وعربى . . »

فجاوبه أبو خالد :

« الله أكبر . . فى سبيل الله . . »

ثم توجه إلى إخوانه وأردف : ـ

« سيصلون إلى هنا حتماً . . معهم الباطل ومعنا الحق . .

الله مولانا . . ولا مولى لهم . .

لا تفكروا فى الدنيـا . . فلا دنيـا لكم بعـد اليـوم . . إنما هو الله والجنة . . »

ومع كلمتـه الأخـيرة اندفع خمسـة عـشر جنديـاً مـدججـاً بالسلاح إلى باب الغار . . .

ودار القتال رائعاً رهيباً . . . !!

ومرة أخرى . . انقطعت بيوسف الأسباب ، وراح يهتف فى أعماقه بهتاف نبى الله يونس ـ عليه السلام ـ « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » [12] .

وفجأة : تحرك الحبل . . كان هناك من يجذبه إلى أعلى فى عزم وسرعة « اللهم لك الحمد . . يا ذا الجلال والإكرام » وما كاد يوسف يصل إلى الجزء العلوى من النفق حتى اندفع يزحف صاعداً فى سرعة ، غير عابئ بنتوءات الصخور وحوافها القاطعة . . وحين وصل إلى فتحة النفق كان وجه فيودور الشاحب فى انتظاره . . وقد حل قيوده ووقف يجذب الحبل بكل قوته لينقذ حياة عدوه وآسره . . وهتف يوسف فى ذهول : أنت ؟! . . مرة أخرى ؟!

وهرب فيودور بعينيه من مواجهة يوسف وأطرق هامساً :

« ربما استطعت يوماً أن تسامحنى !! »

ولم يكن لدى يوسف وقت للكلام . . كانت أمامه مهمة عاجلة . .

* * *

كان على المهاجمين الخائفين أن يشقوا طريقهم فى فتحة مظلمة ذات التواءات وتعاريج ، تبرز صخورها كأنياب الأسود وتتكدس فوق أرضها الأتربة والأحجار . . كان الأمر يبدو وكأنهم داخلون إلى قبر . . وكانوا من فرط رعبهم يطلقون الرصاص بكل ما أوتوا من قوة ، وفى كل اتجاه ، وما إن وصلوا

إلى بهو الغار حتى انطلقت من خلف المتاريس تكبيرة كالبرق . . ودوى صوت الرصاص من الجانبين كقصف المدافع . . سقط الرجال صرعى ، وانعقد الدخان فى جو الغار ، فكساها حجاباً مظلماً يعمى العيون ويخنق الأنفاس ووطىء المهاجمون بأقدامهم جثث الجرحى والقتلى من زملائهم . . فعلت الصرخات ، وتصاعدت الأنات من الصدور وحمى الوطيس ، وصمد المدافعون خلف استحكاماتهم ، لكن رصاص المهاجمين قد اخترق بعضها فسقط رمضان شهيداً ، وأصيب أبو ذر فى ساقه الباقية ، واخترقت إحدى الرصاصات جانب جسده وخرجت من الخلف فتجلد ولم يصرخ بينما أصيب أبو خالد برصاصة أطارت جزءاً من أذنه اليسرى ، كان المهاجمون يلفظون أنفاسهم الأخيرة وقد ازدحم بجثثهم باب الغار حين اندفع يوسف داخلاً إلى البهو الكبير وهتف : ـ

« لقد وجدت المخرج . . »

وسأله أبو خالد بسرعة وهو يكتم الدم النازف من أذنه :

« إلى أين يؤدى ؟ »

ـ « إلى سفح الجبل من الجهة المقابلة »

ـ « هل هو مخرج آمن ؟ »

ـ « لا تبدو فيه أية أخطار لكنه يحتاج أن يتعلق الأخ فى حبل ليتدلى إليه » .

ـ « كم من الوقت يستغرق خروج الواحد . . »

ـ « حوالى ثلاث دقائق . »

ونظر إلى من بقى حوله . . وقال : ـ

ـ « نحن سبعة وهذا يعنى عشرون دقيقة لنخرج من هنا . . لكن فوجاً آخر منهم سيكون هنا بعد خمس دقائق على الأكثر . .

ـ « خطأ يا أبا خالد أنتم ستة . . »

قالها أبو ذر . . وهو يشير إلى ساقة الخشبية والأخرى الجريحة ويردف . . .

« سأبقى . .

سيجدون من يؤنس وحدتهم هنا »

كان الموت معلقاً فوق الرقاب ، لا وقت للجدل ، . . نظر أبو خالد إلى أبى ذر بعينين دامعتين ثم التفت إلى رجاله متجلداً وقال : ـ

« فليكن ، سيبقى أبو ذر ليشغلهم عنا ، اتركوا له ما بقى معكم من سلاح ، وسنخرج فرادى ، ونفترق عند سفح الجبل »
وسأل يوسف : « وكيف ستلتقى ؟؟ »

ـ « هل تعرفون جبل « أتيخاد » ؟!!

ورد داود بسرعة « أجل »

ـ « سأكون هناك غداً عند الغروب إن شاء الله ، فليوافنى

كل من يستطيع السير »

ورد الجميع « سنكون هناك إن شاء الله » .

ـ « وسنبدأ الحرب من جديد » .

وترك الجميع البهو إلى الغرفة الداخلية . .

كان الداخل يترك سلاحه أمام أبى ذر المرابط عند الفتحة بين البهو والغرفة بينما وقف يوسف يعطى التعليمات إلى أول الخارجين ، ويربط الحبل حول خصره وراح أبو ذر يثبت صندوقاً كبيراً يستخدمه المجاهدون لحفظ ملابسهم على باب الغرفة ، ثم التفت إلى يوسف ، وأشار إلى فيودور قائلاً : ماذا « ستفعل » بهذا ؟

فرد يوسف قائلاً : « سأطلقه»

ـ « فى هذه الظروف ؟!! »

ـ « فى هذه الظروف » .

ووصلت أول دفعة من جنود الروس إلى باب الغار . .

تردد المهاجمون ، ولم يحاولوا إزاحة الصندوق دفعة واحدة لكنهم أمطروه بالرصاص ، كان أبو ذر يستتر بصخرة خلف الصندوق ، ويختلس النظر عبر ثقوب الصندوق ويطلق النار ، وكان أبو خالد يهبط النفق حاملاً الراية السوداء . . ولم يبق فى الغرفة سوى يوسف وفيودور .

لمح أبو ذر رأس أحد الجنود ، فثبت مسدساً على فتحة فى

الصندوق وأطلق النار ، سمع صرخة مروعة ، وسقطت رأس الجندى وكبر لكنه شعر فجأة بألم رهيب ، فقد اخترق بطنه سيل من الرصاص ولم يسقط أبو ذر . . بل صر على أسنانه وغمغم « بسم الله وعلى ملة رسول الله » .

ثم تحامل على نفسه وتشبث بحافة الصندوق ، لكن ساقه الخشبية التوت تحته فهوى إلى الأرض .

كان يوسف آخر الخارجين يتطلع من فوهة النفق إلى فيودور قائلاً :

« أنت حر . . عد إلى قومك إن شئت . . لا تنسنى . . ولا تنس ربك !! »

نظر إليه فيودور بوجهه الشاحب ، وبدت على وجهه أمارات الصراع الدائر فى قلبه . .

وغاب وجه يوسف فى النفق ، بينما اقتحم المهاجمون الغرفة ، وراحوا يطلقون النار ، لكنهم لما لمحوا ملازمهم برأسه المعصوب وزيه العسكرى الممزق . . خفضوا السلاح .

وبعد لحظات ، كان الجنود يحرسون مدخل الغار ، بينما راح شامانوف يتجول منتفشاً فى أرجائه ويدخل الغرفة الداخلية قائلاً : ـ

« إذن . . فقد هرب بعضهم من هنا . . لماذا لم تتبعوهم ؟؟ لماذا لم تلقوا القنابل فوق رءوسهم ؟؟ سأحاسب المسئول عن

هذا ؟؟ إلى أين يؤدى هذا النفق ؟؟»

وأجابه من خلفه صوت يعرفه : « إلى النور ، يا سيدى »

التفت الجنرال ، وسدد نظرته الطاغية إلى الملازم القابع فى جنب الغرفة ، وقال :ـ

ماذا تعنى أيها الملازم فيودور ؟!

لم يرتعد فيودور هذه المرة . . أمسك بيده مسدس أبى ذر الشهيد . . وصوب نحو القلب مباشرة . . وأطلق النار . .

***

(8) **ما بعد الخاتمة :**

التقط يوسف ثمرة تشبه الرمان [13] من غصن تدلى له . . ورفعها إلى فمه وهو يقول : ـ

هل تعرفون أين هو هذا (الفيودور) الآن ؟!

ولم يتلق رداً . . فنظر بطرف عينه إلى السرير المقابل له وابتسم ، كان هناك شاب أشقر يبادله نفس النظرة ونفس الابتسامة . . وتحولت أنظار الجميع إلى الأشقر ، وتنبهوا لأول مرة إلى ذلك الشبه الشديد بينه وبين فيودور . .

واتسعت ابتسامة الأشقر وهو يقول :

لم يعد هناك (فيودور) يا أحباب ، ها هنا (عبد الرحمن الروسى) ذلك الذى تبع يوسف إلى آخر النفق . . إلى طاقة من

النور بدت فى قلب الجبل الأصم » ، وساد الصمت لحظات ، ثم تنهد (أبو العباس) وتساءل : ـ

وهل وصلتم إلى (سولانى) ، وما شأن الراية السوداء ؟؟ وكيف التقيتما بأحمد وبقية الإخوان ؟؟ !!

وتبادل الإخوان النظر تارة والابتسام . . قبل أن يجيب يوسف : ـ

تلك يا أخى . . حكاية أخرى (14) .

* * *

اليوم يوم المزيد (15) .

والوقت الباقى على لقاء الله عز وجل . . والنظر إلى وجهه الكريم لا يكفى لقصة أخرى .

إنه يكفى فقط لشراء بعض التحف والهدايا للأهل من سوق المزيد بلا ثمن ، ثم الجلوس على منابر النور وكثبان المسك . . والاستعداد للقاء . .

لا وقت الآن لقصة (عمر) ، وبداياته الدامية فى ساحة الأقصى ، وحارات القدس العتيقة . .

لا تقلق يا صديقى فالوقت لدينا طويل . .

وأمامنا الأبد كله . . لنحكى ونحكى . .

* * *

على هامش السلسلة

تعد القصة من أوسع ألوان الفنون انتشاراً ، وأكثرها تأثيراً فى جماهير العصر الحديث ، وقد غفل كثير من المسلمين عن أهميـة ذلك اللون من الأدب ، وتركوه أداة فى أيدى الأعـداء وغيرهم ، يهدمون به أركان الأخلاق ومبادئ الدين ، واكتفوا بإدانته والبعد عنه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ونسوا أن الأدب والفن عامةً وسيلة لا غاية فى ذاته ، وأنه سلاح فى يد من يحسنه يستثير به مشاعر الناس ، ويوجه قلوبهم وعقولهم إلى الجهة التى يريد ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . .

وقد جنح البعض إلى تحريم الفن القصصى تحريماً مطلقاً ، واستدلوا على ذلك بأنه كذب ، لأنه ليس تعبيراً عن أمر واقع بالفعل ، وهى دعوى لا نسلم بها ، فالكذب هو الإخبار بغير الواقع بشكل يوهم السامع أنه واقع ، أما إذا كان السامع أو القارئ يعلم مسبقاً أن ما يسمعه أو يقرؤه خيال محض ، أو خيال ممزوج بالواقع ، فإن هذا لا يعد كذباً ، ولكنه من باب ضرب الأمثال ، وتقريب المفاهيم ، فهو كقولك لأخيك : « افرض أنه قد حدث كذا » ، « وتخيل أن فلانا قد فعل كذا » وهذا كثير فى كلام الناس ، ولا يعد من الكذب بحال ، بل إن السنة النبوية لا تخلو من أحاديث تتوافر فيها كل أركان القصة ، من أشخاص وأحداث وعبرة مستفادة ، كحديث السفينة المشهور ، ولا دليل على أن هذا الموقف وغيره قد حدث بالفعل ، بل الظاهر أنه مثل

مضروب للعبرة والعظة ، إذ أنه لا يعقل أن أحداً يركب السفن فى قديم أو حديث ولا يعلم أن خرق السفينة ينتج عنه غرقها بالكامل ! !

يقول الشيخ محمد عبد الله الخطيب فى كتابه (حوار حول الدين والفن) : إن القصة الخيالية حلال إذا كان الهدف منها الإصلاح لعيوب المجتمع ، أو كانت تهدف إلى تحقيق خلق إسلامى ، كالحض على الكرم أو الشجاعة أو المروءة أو الترغيب فى الجهاد والكفاح . » أ . هـ

وإذا كانت القصة الخيالية جائزة فمن باب أولى يجوز للكاتب أن يستغل أحداثاً حقيقية كخلفيات لقصته ، يبدع فى ظلالها أشخاصه ، وينسج فى مسرحها أحداث قصته ، وكل ما كتب من قصص تاريخى هو فى الواقع من هذا الباب ، لأنه لا يمكن فى القصة الاقتصار على الحقائق التاريخية الجامدة ، القاصرة فى معظم الأحيان ، والتى لا تسجل مشاعر الأبطال أو تفاصيل الأحداث ، وبالجملة فإن القصة لا تستغنِ عن الخيال بحال ، والهدف منها نقل المشاعر وتقريب المفاهيم ، لا السرد التاريخى المجرد .

والجديد فى هذا العمل الذى بين أيديكم أنه لم يقتصر على الأحداث التاريخية المنقولة إلينا من الأجيال السابقة ، وإنما تخطاها إلى أحداث وملاحم تنبأ بها النبى ﷺ كعلامات الساعة الصغرى والكبرى ، وإلى ما ورد فى الكتاب والسنة من وصف

للدار الآخرة ، وما فيها من نعيم الجنان وعذابات النيران ، وصنع من هذا كله مسرحاً يجول فيه بشخصياته ، وقد راعينا أن تكون الشخصيات من نسج الخيال كى لا نتهم بالحكم على الشخصيات الحقيقية بأنها فى الجنة أو فى النار ، وهو خطأ شرعاً ، كما راعينا عدم اختلاق ألوان من النعيم أو العذاب لم ترد فى الكتاب أو السنة ، فاقتصرنا على تحويل بعض ما ورد فيهما إلى الشكل القصصى ، وأثبتنا الآيات والأحاديث التى اعتمدنا عليها فى آخر كل عدد من السلسلة

وبعد . .

فهذه محاولة لصياغة بعض الأحداث الواردة فى الكتاب والسنة ، وتلك الواقعة فى حاضر أمتنا وماضيها ومستقبلها فى صورة قصصية مشوقة ، تحيى فى النفوس روح الجهاد والاستشهاد ، والأمل فى نصر الله المبين ، فإن أصبنا فمن الله ، وإن تكن الأخرى فمن نفسى ومن الشيطان ، وأستغفر الله منها ومن خطاياى كلها ، ونحن فى انتظار نصحكم وآرائكم تسدد الخطى ، وتحث على المسير . .

والله الموفق ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

محمد عبد الحكيم سليم

طنطا فى الجمعة 28 شعبان 1421 هـ

24 نوفمبر 2000 م

هوامش العدد الأول

(1) عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « بينما أنا أسير فى الجنة ، إذا أنا بنهر ، حافتاه قباب الدر المجوف قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك ، فإذا طينه ، أو طيبه ، مسك أذفر » (رواه البخارى)

وعن قتادة عن أنس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : هو نهر فى الجنّة قال : فقال النبى ـ ﷺ ـ رأيت نهراً فى الجنة حافتيه قباب اللؤلؤ ، قلتُ ما هذا يا جبرائيل ؟ قال هذا الكوثر الذى أعطاكه الله (رواه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح) .

(2) عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام » . (رواه أبو داود) .

(3) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه سأل النبى ـ ﷺ ـ : فما طعام المؤمنين فى زمان الدجال ، قال : طعام الملائكة ، قالوا : أو تطعم الملائكة ؟؟ قال : طعامهم منطقهم بالتسبيح والتقديس فمن كان منطقه يومئذ التسبيح والتقديس أذهب الله عنه الجوع ، فلم يخش جوعاً . (أخرجه نعيم بن حماد فى الفتن)

(4) عن أبى هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أنه قال : «لن ينجى أحد منكم عمله» قال رجل : ولا إياك ؟ يا رسول الله ! قال ولا إياى . إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة ولكن سددوا» . (رواه مسلم)

(5) أهل الجنة يطلعون على أهل النار كما ورد فى الآيات الكريمات : « قال قائل منهم إنى كان لى قرين ، يقول أئنك لمن المصدقين ، أئذامتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم » . (الصافات 51 ـ 55)

(6) عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه : أن رجلاً سأل النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله هل فى الجنة من خيل؟ قال إن أدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء تطير بك فى الجنة حيث شئت إلا فعلت . (رواه الترمذى)

(7) عن أبى هريرة ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وهاجر فى سبيل الله ، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها) قالوا : يا رسول الله ، أفلا ننبئ الناس بذلك ؟ قال : (إن فى الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجّر أنهار الجنة) (رواه البخارى)

(8) عـن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادى مناد : يا أهل الجنة ، فيشربون وينظـرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه . ثم ينادى : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظـرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هـذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت . ثم قرأ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (مريم : 39) (رواه البخارى)

(9) عن أبى سعيد الخدرى : عن رسول الله ـ ﷺ ـ أن رجلاً قال له يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال طوبى لمن رآنى وآمن بى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى ، قال له رجل : وما طوبى ؟؟ قال شجرة فى الجنة مسيرة مئة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها . (رواه أحمد)

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، ولا يقطعها » واقرأوا إن شئتم : وظل ممدود (رواه ابن ماجة)

(فى ظلها) قال النووى : قال العلماء : المراد بظلها كنفها قال ابن الجوزى : ويقال لهذه الشجرة : طوبى .

(10) عن أبى هريرة أن رسـول الله ـ ﷺ ـ قـال «لا تقـوم الساعـة حتى ينزل الروم بالأعماق ، أم بدابق . فيخرج إليهم جيش من المدينة . من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون : لا . والله ! لا نخلى بينكم وبين إخواننا . فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً . ويقتل ثلثهم ، أفضل الشهداء عند الله ويفتتح الثلث . لا يفتنون أبداً فيفتتحون قسطنطينية . فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذا صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلفكم فى أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاؤا الشام خرج . فبينما هم يعدون للقتال ، يسوون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فأمهم فإذا رآه عدو الله ، ذاب كما يذوب الملح فى الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه فى حربته » .

(11) أهل الجنة يتذاكرون ما كان منهم فى حياتهم الدنيا بدليل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾(الطور : 25 ـ 28)

(12) قال تعالى عن أهل الجنة : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ

رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ (البقرة ـ 25)
قال ابن جرير بإسناده فى قوله تعالى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ يعنى فى اللون والمرأى وليس يشبه فى الطعم . وهذا اختيار ابن جرير وقال عكرمة ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ قال : يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب ، وعن ابن عباس لا يشبه شىء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء ، وفى رواية ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء . (مختصر ابن كثير للصابونى) .

(13) انتظر العدد الرابع من هذه السلسلة (الرايات السود)

(14) قال تعالى : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ وقال عز وجل : ﴿ للذين أحسنوا وزيادة ﴾ ، وفى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومى أنها النظر إلى وجه الله الكريم وقد روى البزار ، عن أنس بن مالك فى قوله عز وجل ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال : يظهر لهم الربّ عز وجل فى كل جمعة (أخرجه البزار وابن أبى حاتم موقوفاً ، ورواه الشافعى مرفوعاً فى مسنده) (مختصرابن كثير للصابونى) .

وعن سعيد بن المسيب :

أنه سمع أبا هريرة ، فقال أبوهريرة أسأل الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة فقال سعيد : أفيها سوق ، قال نعم ، أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن فى مقدار يوم الجمعة من

أيام الدنيا فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة فتوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ويجلس أدناهم وما فيهم من دنى على كثبان المسك والكافور ما يرون أن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسا قال أبوهريرة : قلت يا رسول الله : وهل نرى ربنا ؟ قال : نعم ، هل تتمارون فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا لا ، قال : كذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم ، ولا يبقى فى ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله حتى يقول للرجل منهم يا فلان بن فلان ، أتذكر يوم قلت كذا وكذا فيذكره ببعض غدراته فى الدنيا ، فيقول يا رب أفلم تغفر لى ؟ فيقول بلى فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه ، فبيناهم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبا ولم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط ، ويقول ربنا قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم فنأتى سوقا قد حفت به الملائكة فيه مالم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، فيحمل الينا ما اشتهينا ليس يباع فيها ولا يشترى وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا ، قال : فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيلقى من هو دونه وما فيهم دنى فيروعه ما يرى عليه من اللباس فما

ينقضى آخر حديثه حتى يتخيل عليه ما هو أحسن منه وذلك أنه لا ينبغى أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا فتتلقانا أزواجنا فيقلن مرحباً وأهلاً لقد جئت وان لك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ويحق لنا أن نتقلب بمثل ما انقلبنا » رواه الترمذى .

مرحباً برسائلكم وآرائكم على عنوان الدار

طنطا 23 ش الجيش عمارة الشرق للتأمين

تلفاكس : 321744 - 305538

تليفون : 2120277

أسود الجبل

كان على المهاجمين أن يشقوا طريقهم فى فتحة مظلمة ذات تعاريج ، تبرز صخورها كأنياب الأسود ، كانوا يطلقون الرصاص فى كل اتجاه وبكل ما أوتوا من قوة ، انطلقت من خلف المتاريس تكبيرة كالبرق ودار القتال رائعاً رهيباً !!



الإدارة: طنطا 23 ش الجيش عمارة الشرق للتأمين
المكتبة: طنطا 32 ش الحلو تقاطع حسن رضوان
تليفاكس: 3305538 - 040/3321744 ت: 2120277 - 040/2120907

Web Site : www.albashir.com.eg
E- mail : albashira@ compu - castle.com.eg